ذات الثوب الأرجوانى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

(تنبيه : الكلام كله تخيل ولا أصل أو حقيقة له)

— ٧ —

طلبت من الريف ما الاسبيل إليه فى هذه المدينة العظيمة ذات المآثر الشاهقة ، والبنى الرفيعة ، والهواء الحبيس ، والنفوس المروضة على تكلف غير طباعها . وكان بعض قومى قد سبقونى ؛ فأنبأنهم أنى لاحق بهم ، وإذا ببرقية تردنى منهم يقولون فيها : « هات فتنة معك » فلم أدر ما — أو من — « فتنة » هذه .. أقطة هى يا ترى ؟ أم فتاة ؟ أم كلبة ؟ أم ماذا ؟ ... وكنت أعد حقائبى ، ومكتب البرق بعيد منى ، وحدثتنى نفسى أنهم يعرفون أنى لا أعرف « فتنة » . فالأرجح أن يكونوا قد أبرقوا إليها لتتصل بى ، أو لأصاحبها إذا كانت حيواناً . وقلت سأسافر على كل حال فى الوقت المعين . جاءت « فتنة » أم لم تجىء . وأنبلت على الحقيبة أحشر فيها — فما لى قدرة على الترتيب والتنظيم — ما أقدر أن سأحتاج إليه ، وإذا بالباب يقرع قرعاً مزعجاً لاعهد لى به ، ففزعت ومضيت إليه على عجل مخافة أن يكسره الطارق . ودار فى نفسى أن هكذا دق « تيمون الأثينى » باب الآخرة حين انحدر إليها بعد أن وافاه حينه الذى كان ينتظره بصبر فارغ من فرط كرهه للناس ، فان أساطير اليونان تزعم أن الناس يهبطون بعد موتهم إلى وادى الظلال ، وهناك يحشدون فى الفجر ويُعدّون وتقيد أسماؤهم ثم يركبونهم زورقاً — غير بخارى بالطبع — إلى وادى القنوط حيث يكون الحساب . ومن غرائب هذه الأسطورة أن على كل راكب أو محمول فى هذا الزورق أن يؤدى أجرة العبور إلى وادى القنوط . . . وقد ضحكت وأنا أذكر هذا إذ أمشى إلى الباب ، وقلت لنفسى والله أن يبتى لكوادى القنوط بفضل « ذات الثوب الأرجوانى » وما أخلقنى حين أفتح الباب لهذا الزائر المستعجل أن أوحب به بهذه الأبيات القديمة التى نظمتها لمناسبة شبيهة بهذه :

« دارُنا مغرب أنوار الحياهْ من رآها لم ير الضوء الطليق
ما لمن يهوى إليها من نجاهْ ما لما يضرب فيها من شروق

* * *

وهى ، فى الأكوان ، دنيا عاقرُ كل زخار له فيها ركودْ
ضرب السحرَ عليها ساحرُ فهى عنوانٌ على عقم الوجود »

ولكن شيئاً — لعله الالهام — صرفنى عن هذه التحية غير الطيبة ، فقد كان الزائر فتاة أشهد أنها من أجمل — إذا لم تكن أجمل — من رأيت فى حياتى ؛ وكانت رشيقة ممشوقة ، ووجهها وضاح ؛ أما عينها فأعوذ بالله منها ! أعنى أن البراقع ما اتخذت إلا لتقى الناس سحر مثلها

وقالت وهى تنساب كالماء الرقراق : « لست تعرفنى بالطبع .. ولكنى أنا أعرفك »

قلت : « تفضلى . . أعنى أولاً . . وبعد ذلك يتسع الوقت للسؤال والجواب »

قالت : « متى تسافر ؟ »

قلت : « هل تعلمت فى انجلترا .. أو لعل أباك انجليزى ؟ »

قالت : « لماذا .. انى سمراء . أولونى أقرب الى السمرة .. ثم إنى لا أعرف الانجليزية . . تعلمت فى « الميرده دييه » «فقط»

قلت : « هذا أحسن . . على كل حال إنما عنيت أنك تمضين الى غرضك بلا لف ولا تضييعين الوقت .. سأسافر فى الفجر »

قالت : « سأبعث إليك إذن بالحقائب الليلة وأجىء أنا قبيل الفجر »

قلت بفرح : « أنت إذن « فتنة » ؟ ؟ لقد صدق الذى سماك »

فقالت وهى تنهض عن الكرسى وتمضى إلى المنضدة وتقلب ما عليها : « أليس عندك سجاير ؟ . أم أنت لا تدخن ؟ . »

قلت : « إنك صغيرة جداً . . ولكن خذى »

فأخذت سيجارة وانطلقت تدخن وهى ساهمة وأنا أنظر إليها ولا أقول شيئاً ، فقد خطر لى أنى سأشهد فصولاً كثيرة متعاقبة لهذه الرواية . وإذا بها ترمى السيجارة من النافذة وتقول « إلى الملتقى إذن . . وشكراً لك »

وليس أبغض إلىّ من أن يرى الناس ما أصنع أو يشهدوا خروجى ودخولى وسفرى وإيابى . ولكنى أحسب الدنيا كلها — دنيا شارعنا على الأقل — قد علمت أنى مسافر بالسيارة ،

وأن مى فتاة جميلة ستريني النجوم في الظهر الأحمر . . واطلعت — أعنى الدنيا الخاصة — على ما في حقيبتي الصغيرة وحقائبها الكثيرة المتنفخة فقد كانت لاتفتأ تأمرنى بأن أغيز كل ما رتبت . هذه الحقيبة لا يجوز أن تكون تحت غيرها لأنها من جلد طرى فهي تخشى عليها التلف . . وهذه الكبيرة فيها ما قد تحتاج إليه في الطريق فيجب أن تكون فوق . فأقول ولكن الطرية يجب أن تكون فوق فإذا أصنع ؟؟ فتقول هات الطرية معنا في السيارة فأطيع وأحل ما عقدت ، وأعقد ما حللت . ثم يتضح أن فيما ربط خلف السيارة أشياء لا بد منها كل بضع دقائق في الطريق ، فأسأل مثل ماذا ؟ فتقول مثل زجاجة الكولونيا الصغيرة وملحقاتها من أدوات الزينة المعروفة التي لا غنى عنها — حتى الفتيات الصغيرات مثل « فتنة » صرن لا يستغنين عن ذلك ، فأعود إلى الحل والعقد وأفتح لها الحقائب — في الطريق من فضلك — ولم تكن الشمس قد طلعت ، ولكنه كان هناك خلق كثير احتشد لتكيدتى ! ! وقد عنيت بأن أحصى هذا الخلق وإليك البيان :

(١) سائق مركبة « كارو » — سكران على الأرجح

(٢) ستة من عمال الطرق عائدون يمشون صفين ومعهم المكانس يحملونها كما يحمل الجنود البنادق . وقد وقفوا ينظرون إلينا مسرورين

(٣) قطتان : واحدة على رصيفنا والأخرى على رصيف « ذات الثوب الأرجواني »

(٤) أربعة غلمان كانوا سائرين فلما رأونا رأفهم منظرنا فوقفوا ينظرون ويتبادلون الملاحظات ولا أدرى من أين جاءوا ولا إلى أين كانوا ذاهبين في هذه البكرة

(٥) رجل من عمال شركة النور كف حين رآنا عن اطفاء المصابيح وجاء ووقف مع الغلمان

ولم أحسب المارة الذين أبى لهم أدبهم — أو ذهولهم أن يقفوا ويتفرجوا . وقد كان هؤلاء جميعاً يضحكون منا حتى القطتان

ولا أمل القارئ بوصف هذه الرحلة وما جرى فيها فليس لهذا آخر ، فقد كان كل كيلو فيها لا يخلو من حادثة ، وصار لى في هذه السكة الزراعية من الذكريات بعدد ما على جانبيها من الأشجار . ولما دنونا من البلدة قالت : « هل هذه هي . . . »

قلت : « قربنا »

قالت : « أراهن أنك لن تقبل بعد اليوم أن تحمل في سيارتك فتاة أخرى » ثم التفتت إلى أعنى أنها انحنت قليلاً إلى الأمام وواجهتني وهي تبتسم وقالت : « قد تكره أن تسمع منى هذا ولكني شاكرة ... شاكرة جداً . . وقد أتعبتك . . لا تقل شيئاً فإني واثقة أني أتعبتك . ولكنك كنت حليماً جداً »

قلت : « كلام فارغ . . قولى شيئاً آخر »

قالت : « لا أدرى متى يتاح لى أن أراك مرة أخرى ولهذا عجلت بشكرك في الطريق »

فضبطت نفسي بجهد ، ومع ذلك كانت « إيه ؟ » التي ندت عني كالصيحة فقالت : « نعم فإني مرتبطة بأهلي فإذا رحلوا — كما ينوون أن يفعلوا — إلى الاسكندرية رحلت معهم وإلا بقينا .. وأنا أرجو أن يبقوا فإني أريد أن أعلى بـ ... وبـ ... »

فصحت بها : « ماذا تعنين ؟؟ أعنى ما الفائدة من حملك كل هذه المسافة من القاهرة إلى هذه القرية السحيقة إذا كنت ستختفين غداً ؟ ؟ »

قالت : « وماذا أصنع ؟. وعلى كل حال كيف يعنيك هذا ؟. ماذا يهمك ؟ »

قلت مغالطاً : « لا شيء بالطبع ! لك الحق »

قالت : « لقد كنت أهم بأن أقول لك اكتب إلى إذا شئت ولكني عدلت الآن .. من فضلك انتظر لحظة .. دقيقة واحدة فإن جوربى اتسخ جداً وأريد أن أغيره قبل أن ندخل البلدة »

فوقفت ونزلت من السيارة وذهبت أتمشى فلما عدت — إجابة لندائها — قالت : « الآن أنا نظيفة وجميلة »

قلت : « أنت دائماً هكذا »

قالت : « صحيح ؟» وكنت صادقاً فما فقدت ذرة من نضارتها ورونقها بعد مائة وثمانين كيلومترا

فقالت : « إن خير ما فيك أنك تعنى ما تقول .. فأنا أعرف الآن أنى دائماً جميلة .. وأنا أعرف بغير معونتك أن ساق جميلتان لا تنكار .. لقد قلت هذا .. ولكن عيني .. و .. و .. وشعرى .. أنا مضطربة .. لم أسمع منك ثناء على عيني وشعرى »

فقلت باختصار : « خير ما رأيت »

فابتسمت وقالت : « ثناء وجيز . . وجيز جداً . . ولكنه يكفي للاطمئنان .. »

فلم يسعني إلا أن أقرصها وأنا أصيح بها : « يا ملعونة »

* * *

وأعود إلى الريف الذي نشدت في ظله الروح والراحة فأقول إن هذه الزروع التي تمتد إلى النهر والتي كانت تبدو لي في الظلام سوداء أنعشت روحي وبردت دمائي التي كانت تغلي في عروقي ووهبتني السكينة والهدوء لأعصابي التي أثارها الغيظ والغضب ، والروح لقلبي الذي أجهده حب عقيم ، ولكنه مع ذلك مضطرم . وقد كلمتني الأشجار الوارفة ، والمياه الجارية ، والهواء الندي ، والظلال المديدة تحت الألفاف المتشجنة . وقالت لي كلها أني مخطئ في ثورتي وغضبي وأني يجب أن أعرف وأدرك أني لا شيء في حياة ذات الثوب الأرجواني ، ولما كنت لا شيء فان من التطاول والغرور أن أحاول أن أحشر نفسي في حياتها ، وأن أزجها بوجودي وأن أهيمن عليها وأسيطر . نعم أنا لا شيء . وليس لي عند ذات الثوب الأرجواني شيء . . لا اختلاجة واحدة من جفنها . ولا نبضة من عروقها . ولا خفقة مفردة من قلبها ، ولا خاطراً مما يجول في رأسها أو يدور في نفسها . . ولا نفساً واحداً من هذه الآلاف واللايين من الأنفاس التي يعلو لها صدرها ويهبط . . حتى هذا الذي هو للهواء ليس لي منه شيء !!

وقضيت يومين بين أحضان الطبيعة الصريحة فكانت أشجارها ومياهها وأطيارها تعيد على مسمعي هذا المعنى في كل ليلة وتكرره وإن اختلفت الأنغام وتعددت الأصوات ، وما كانت تعيد أو تسمعني إلا ما كانت نفسي تحدثني به ، وقلبي يخبرني أنه الحق الذي كنت أحاول بالأمل أن أخنقه كل ليلة في ظلمة الليل على وسادتي كأنه صوت «ديدمونه» إذ يميل على عنقها عطيل بيديه الكبيرتين الثقيلتين .

وعدت وقد وطنت نفسي على اليأس ، وخيل إليّ أنها سكنت واطمأنت ، فجلست في شرفتي ملفوفاً في سواد الليل ، وفي قلبي برد السكينة ، أنظر إلى النجوم المتلألئة ، ولا أنظر إلى شرفتك وإذا بصوتك يهفو إليّ منها . . . صوتك إذ تنادين أخاك . . فذهبت سكينة نفسي ومزقتها العاصفة الكامنة في أعماق البحر ، وأحسست أن روحي كلها تهزها نبرات هذا الصوت العجيب . . . وخفت صوت الطبيعة التي فاجئتني به في الريف في ظل الشجر وعلى سيف النهر . . وكنت تميلين على حافة الشرفة وترسلين الصوت مجاجلا في سكون الليل ، وتهيبين بأخيك أن يرتد إليك قبل أن يذهب في شأنه ، فوددت لو أتف وأصيح به وأعينك على إسماعه ورده ! ونهضت فعلا ، ولكني وضعت يدي على فمي ، وكتمت ما كان يوشك أن ترتفع به عقيرتي ثم انحططت على مقعدي وقد شاع في اليأس «علوا وسفلا» كما يقول النواسي — اليأس من الشقاء — والسخط على نفسي إذ ذهبت إلى الريف وحرمت نفسي مرآك يومين كاملين بلا جدوى .

كلا . . لست ذلك « اللاشيء » الذي زعمتني الطبيعة الساذجة ! . وليس صحيحاً أن أنفاسك كلها ذاهبة في الهواء كما تذهب أنفاس الناس . . ولا أن خفقات قلبك ليس لي منها نصيب . . ولقد غافلتك ومضيت إلى غرفة مظلمة واستمعت بانتظار مكبر ، فاذا عينك على شرفتي ، وإذا أنت تتلفتين ثم تحدقين لتتبيني ولتعرفي أباق أنا في الشرفة حيث كنت أم دخلت ؟ . وكنت قد غالطتك وخادعتك فأسندت شيئاً على الكرسي مكاني لتظني متوهمة أني هناك حين تنظرين ، ولأستطيع أن أعرف أين تنظرين حين تفعلين . . فزال الشك فقد طال تحديقك ثم كأنما رابك شيء من جمود هذا القائم على الكرسي فجعلت تتحولين إلى كل موضع في الشرفة وتنظرين ، ولبثت هكذا زمناً ثم دخلت ، فما كان مني الا أن أسرعت وعدت الى الكرسي فقعدت عليه مظمئنا كما كانت الحبشية التي وضعتها قاعدة ! إذن كانت لي تلك الوردة الحمراء التي نفضت عنها طلّها وشممتها . . ولي هذه الاشارة إذ تظهرين على الشرفة فترفعين أناملك الى خصل شعرك المرسل وترديها عن أذنك . . ولي هذه الابتسامات الوضيئة حين يسرك من جليسك أو جليستك ما تسمعين . . . وإذن لم يكن عفواً أن الفتاة التي زارتك عصر يوم كانت لا تنفك تدير وجهها وتنظر الى ناحيتي كأنما تريد أن تراني . ولقد عجبت يومئذ لكثرة تلفتها ونظرها الي وظننت أن هذا من الفضول المألوف ، ثم ترددت وشككت فقد رأيتك تتكلمين ورأيتها تتلفت ، فتخفين أنت وجهك حتى ترد هي وجهها إليك . وتكرر هذا مع زائرة أخرى جلست معك في الشرفة — وكنت أحسبها قديماً أختاً لك متزوجة لشابه رأيتها فيها منك — وكان ظهرك إليّ ووجهها هي اليك وإليّ ، وكان الكلام يدور بينكما ، ولكن عين الزائرة لم تكن الا عليّ أنا ، وأنا

أتشاغل عنكما ولكني أراكما ، وقديماً قالت أمي عني إن لي عيناً في قفاي . . وإذن ليس عفواً أن أهلك جميعاً معنيون بي وأنهم لا يزالون يراعونني وينظرون بلي بل يراقبونني — لولا أني أكره هذه اللفظة — حتى ليبدو لي أحياناً أنهم يصطفون في الشرفة ويبعثون إليك وأنت في الحجرة بأخباري وأنبائي لتعرف أبالي أنا أم خارج . كأنما يحجرون عليك ويعنونك أن تظهري لي ، ولا يسمحون لك بالبروز إلا بعد أن يوقنوا أني خرجت وأن في الوسع انقضاء شري . . كأنما في الأمر شر . . ويكبر هذا في وهمي أحياناً حتى لأترك البيت لغير سبب أو داع سوى أن أعفيك من عنت أهلك ، وأطلق لك الحرية التي يقيدونها بسببي . . وإذا جلستُ في الشرفة تعمدت أن أحول عيني إلى ناحية أخرى وإن كان هذا حرماناً لي لا حقّ لهم فيه ، ولكني من أجلك أحتمله وفي سبيلك أصبر عليه . وليت من يدري بأي شيء لفتُّ نظر أهلك الى حبي لك وأنا أتحاشى كل إشارة ؟ بل انا أجتنب أن أنظر اليك حين يكون معك أحد ولو كان طفلاً صغيراً . . فهل ترى حدثتهم أنت بما أحسست من ناحيتي ؟ ؟ ربما . . فان كنت قد فعلت فأنت طائشة ، فقد جعلتِ على نفسك منهم رقباء بلا موجب ، فما بيننا شيء سوى النظر « وهل ذاك نافع ؟ » كما يقول الشاعر القديم . . وقد حدثت نفسي أمس أن أشتري ورداً أحمر ، فانك تحبينه على ما يظهر ، وأن أشير به إليك ، ولكني لم أفعل وقلت لنفسي : « ما الفائدة ؟ . هبني أشرتُ وأشرتُ وهبها أجابت وأجابت ؟ ؟ أفنظل أنا أشير اليها من بعيد ، وهي تجاوبني من بعيد ؟؟ ثم لا شيء غير ذلك . . عرفنا أنا محبان ثم ماذا بعد هذا ؟؟ هي تظهر في الشرفة ، وأنا أنظر اليها من الشرفة . . هي في السماء نجم لامعٌ ، وأنا فوق الأرض عين يرفعها اليه قلب واجف ! ! كلا ! . لا ورد ولا شبهه ! . ما الفائدة ؟ . ما الفائدة ؟ . إني أراني أرجع القهقرى قروناً . . بل أنا لا أرجع ولا أتقدم . . وإنما أرى الحياة تركد وتأسن من حولي لأن ذات الثوب الأرجواني شاءت أن تكون قطعةً من أثاث بيت فهي فيه لتكون زينةً له لا لتحيا وتنعم بالحياة . . وأثارني هذا الخاطر فغضبت وسخطت وأحسست أن نفسي امتلأت مرارة حتى لو جدت طعمها على لساني . . . سخطت على نفسي لأني خيّل إلى أني إنما أحب فتاة ساذجة يسرها أن تكون محبوبة وتقنع من الحب بأن تنظر إلى الرجل وترى الرجل ينظر اليها . . . وغضبت لأني رأيت أن هذه مهزلة فانا أذوي نفسي ، وأمزق أعصابي ، وأحرق دمي ، وهي تظن أني مغتبط راض قانع بمرآها في هذه الأثواب المديدة التي لا تنفك تخلع منها واحداً وتلبس آخر ؟ . وما أكثر ما آليت لأسحقن هذا الحب ثم ما هو إلا أن أراها ناظرة إليّ حتى يتحلل العزم وينقض ما كنت أبرمته منه . فالحق أن هذه مصيبة لم تكن لي في حساب ولا كان يخطر لي في بال أنها ستنصب يوماً على أم رأسي . . وانظر ماذا تصنع مني ! ! تبدو لي في الأرجواني ، وتبقى فيه حتى أراها — أعني حتى توقن أني رأيتها فاني أراها كثيراً وهي لا تراني — فاذا وثقتْ دخلتْ وغيرته ! ! أليست هذه مكايدة متعمدة . . ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

٧٠٩

لجنة التأليف والترجمة والنشر

النتائج السياسية للحرب العظمى

تأليف رمزي صبور

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر سابقاً

وترجمة الأستاذ محمد بدران

ناظر مدرسة بنها قادن الابتدائية

كتاب قيم يبحث بحثاً علمياً منطقياً في القوى والعوامل الخفية التي كانت تسيطر على أوربا والعالم أجمع منذ أوائل هذا القرن والتي أدّت إلى اشتعال نار الحرب العظمى وعينت شروط التسوية التي أعقبتها ، وهو يشرح ما في هذه التسوية من أغلاط ويتنبأ بالحوادث التي وقعت في العالم في المدة الأخيرة ونقصت شروط هذه التسوية ، وقد أضاف اليه المترجم فصلاً في حوادث الست السنين الأخيرة في الصين والحبشة وألمانيا وبلاد البلقان والشرق الأدنى فهو لذلك كتاب لا غنى عنه للعالم والطالب والقارئ العادي ، والكتاب يقع في نحو أربعمائة صفحة ، وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جميل مصقول ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ومن المكاتب الشهيرة ، وثمنه عشرة قروش عدا أجرة البريد